عبد الله بن المبارك
المبارك المبارك
أعلام التابعين

عبد الله بن المبارك

في مدينة مرو سنة 118هـ ولد عبد الله بن المبارك ونشأ بين العلماء نشأة صالحة، فحفظ القرآن الكريم، وتعلم اللغة العربية، وحفظ أحاديث كثيرة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرس الفقه، وأنعم الله عليه بذاكرة قوية منذ صغره، فقد كان سريع الحفظ، لا ينسى ما يحفظه أبدًا، يحكي أحد أقربائه واسمه صخر بن المبارك عن ذلك فيقول: كنا غلمانًا في الكتاب، فمررت أنا وابن المبارك ورجل يخطب، فأطال خطبته، فلما انتهى قال لي ابن المبارك: قد حفظتها، فسمعه رجل من القوم، فقال: هاتها، أسمعنا إن كنت حفظتها كما تدَّعي، فأعادها عليه ابن المبارك وقد حفظها ولم يخطئ في لفظ منها.

وفي الثالثة والعشرين من عمره رحل عبد الله إلى بلاد الإسلام الواسعة طلبًا للعلم، فسافر إلى العراق والحجاز.. وغيرهما، والتقى بعدد كبير من علماء عصره فأخذ عنهم الحديث والفقه، فالتقى بالإمام مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وأبي حنيفة النعمان، وكان عبد الله كلما ازداد علمًا، ازداد خوفًا من الله وزهدًا في الدنيا، وكان إذا قرأ كتابًا من كتب الوعظ يذكره بالآخرة وبالجنة والنار، وبالوقوف بين يدي الله للحساب، بكى بكاء شديدًا، واقشعر جسمه، وارتعدت فرائصه، ولا يكاد يتكلم أحد معه.

وكان عبد الله يكسب من تجارته مالا كثيرًا، وها هو ذا يعطينا درسًا بليغًا في السلوك الصحيح للمسلم، وذلك حين أتاه أحد أصدقائه واسمه أبو علي وهو يظن أن الزهد والتجارة لا يجتمعان قائلاً لعبد الله: أنت تأمرنا بالزهد، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام كيف ذا؟! فقال له عبد الله بن المبارك: يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصون وجهي، وأُكْرِم عرضي، وأستعين به على طاعة ربي، لا أرى لله حقًّا إلا سارعت إليه حتى أقوم به، وكان عبد الله بن المبارك لا يبخل على أحد بماله، بل كان كريمًا سخيًّا، ينفق على الفقراء والمساكين في كل سنة مائة ألف درهم.

وكان ينفق على طلاب العلم بسخاء وجود، حتى عوتب في ذلك فقال: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث، فأحسنوا طلبه لحاجة الناس إليهم، احتاجوا فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم لا أعلم بعد النبوة أفضل من بثِّ العلم.

وكان ابن المبارك يحبُّ مكة، ويكثر من الخروج إليها للحج والزيارة، وكان كلما خرج من مكة قال:

بُغْضُ الحياةِ وخوْفُ اللَّهِ أخرجنَي وَبيعُ نَفْسي بما لَيسَتْ لَهُ ثمَنَا

إني وزنْتُ الَّذي يبْقَي لِيعْدلَه ما ليس يبْقي فَلا واللَّهِ ما اتَّزَنَا

وكان عبد الله بن المبارك يجاهد في سبيل الله بسيفه، حتى إن كثيرًا ممن أتوا ليستمعوا إلى علمه، كانوا يذهبون إليه فيجدونه في الغزو، وكان يرى أن الجهاد فريضة يجب أن يؤديها المسلمون كما أداها الرسول صلى الله عليه وسلم ويروى عنه أنه أرسل إلى صاحبه الفضيل بن عياض يحثُّه على قتال الأعداء، ويدعوه إلى ترك البكاء عند البيت الحرام قائلاً له:

::
:
يا عابدَ الحرَميْن لو أبْصَرْتَنا :: لَعلِمْتَ أنَّكَ في العبَادةِ تَلْعَبُ
من كان يَخْضبُ خدَّه بدُمُوعه : فنحوُرنا بدمائِنا تتخضَّب
أوْ كان يُتْعبَ خيلَه في باطَل :: فخيولُنا يوم الصبيحة تَتْعبُ
ريح العبير لكم، ونحن عبيرُنا : رَهَجُ السَّنَابك والغبارُ الأطيبُ
::
:

وأحبَّ عبد الله بن المبارك أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حبًّا عظيمًا وكان لا يجيب أحدًا يسأله عن حديث منها وهو يمشي، ويقول للسائل: ليس هذا من توقير العلم.

وكان حفَّاظ الحديث في الكوفة إذا اختلفوا حول حديث قالوا:

مروا بنا إلى هذا الطبيب نسأله - يقصدون عبد الله بن المبارك -.

ولقد اجتمع نفر من أصحابه يومًا وقالوا: تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: جمع العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والشعر،

والفصاحة والزهد، والورع، والإنصاف، وقيام الليل، والعبادة، والفروسية، والشجاعة، والشدة في بدنه، وترك الكلام في ما لا يعنيه.. حتى أجهدهم العدُّ.

ولقد قدر الناس عبد الله بن المبارك وزادت مهابته لديهم على مهابة هارون الرشيد.. رُوي أن هارون الرشيد قدم ذات يوم إلى الرقَّة فوجد الناس يجرون خلف عبد الله بن المبارك لينظروا إليه، ويسلموا عليه، فنظرت زوجة هارون الرشيد من شباك قصرها، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟! قالوا: عالم من خراسان قدم الرقَّة يقال له عبد الله بن المبارك) فقالت: هذا والله الملك، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بالشرطة والأعوان.

وفي يوم من أيام شهر رمضان سنة 181هـ توفي عبد الله بن المبارك وهو راجع من الغزو، وكان عمره ثلاثة وستين عامًا، ويقال: إن الرشيد لما بلغه موت عبدالله، قال: مات اليوم سيد العلماء.

قال محمد بن المثنى: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: ما رأت عيناي مثل أربعة: ما رأيت أحفظ للحديث من الثوري، ولا أشد تقشفًا من شعبة، ولا أعقل من مالك، ولا أنصح للأمة من ابن المبارك.

نشأته:

نشأ ابن المبارك في أسرة متواضعة؛ فقد كان أبوه أجيرًا بسيطًا يعمل حارسًا لبستان أحد الأثرياء، غير أن والده هذا كان سبب رخائه أورثه المال رذاذًا، ثم صار على يده وابلاً ثجاجًا.

إن المتأمل لهذا المال الذي وصف بأنه رذاذ ليعلم أنه سبب الخير كله، فقد اكتسبه " والده المبارك " بجد وجهدٍ وكفاح وصبر، فكان ثمرة يانعة مقنعة لرجل ورع، حريص على أداء حق العمل، فلم يرض إلا أن يشغل كل وقته في العمل تحريًا للأجر الحلال، فلم يتطلع يومًا للأكل من البستان، وهو ما يكتشفه صاحب البستان ويتعجب له.

ففي إحدى زياراته طلب منه رمانة يأكلها، فجاءه بواحدة، فوجدها حامضة لم تنضج، فرماها، وطلب منه أخرى، فكانت كذلك، فغضب وصاح: أما تعرف الناضج من غيره؟ تظل هذا العمر معي ولا تستطيع أن تقدم أحسن ما لديك؟!

فقال مبارك - صادقًا -: وكيف أعرف وأنا لم أذق شيئًا منه!!

فتعجب صاحب البستان، وقال: ألا تتمتع ببعض ما هو تحت يديك؟!

قال مبارك: لم تأذن لي في ذلك.. فكيف أستحل ما ليس لي؟!

سكت الرجل مندهشًا وقال له: فقد أذنت، من الآن فكل!

من هنا نعرف لأي أبٍ ينتمي عبد الله، إنه ينتمي لأب صالح ولصلاح الأب جائزة عظمى يجدها عند لقاء ربه، ويبقى أثرها في الأبناء!! وهو ما نجده في القصص القرآني الحكيم من قصة الغلامين اليتيمين قال تعالى:{ۈۇۆۆۈ ۇ ۋ ۋ ۇ ۇ ې ېېىىائائەئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆئۆ ئۈ ئۈ ئې ئېئې ئى ئى ئد ى ىيي□ } [الكهف: ٨٢].

فكان صلاح الأب سببًا في استخراج الكنز، وكذلك كان الحال مع عبد الله بن المبارك، فسنة الله لا تتخلف، كان الأب صالحًا فاستخرج عبد الله كنزًا تمثل في مال صار على يديه وابلاً ثجاجًا، وحصّل علما وأدبًا وفقها مازالت تتوارثه الأجيال!

رحلاته في طلب العلم:

ارتحل ابن المبارك إلى الحرمين والشام ومصر والعراق والجزيرة وخراسان.

لقد أثمرت رحلات ابن المبارك، لأنه قد ارتسم لنفسه منهاجًا يسير عليه، فلم يكن همه من ارتحاله جمع العلم مهما كان مصدره، بل كان التحقق من مصدره أساس منهجه؛ فقد سأله أبو إسحاق قائلاً: " يا أبا عبد الرحمن الحديث الذي جاء إن من البر بعد البر أن تصلي لأبويك مع صلاتك وتصوم لهما مع صومك. فقال عبد الله: يا أبا إسحاق عن من هذا؟ قال: قلت: هذا من حديث شهاب بن خراش. قال: ثقة عن من قال؟ قلت: عن الحجاج بن دينار. قال: ثقة قال: عن من؟ قلت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: يا أبا إسحاق إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي صلى الله عليه وسلم مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي ولكن ليس في الصدقة اختلاف ".

فهو حين يتوقف أمام هذا الحديث، لا ينكر ما فيه من البر، إلا أنه لا ينسب الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم مادام لم يتوفر لديه السند إلى رسول الله وإن كان الحجاج ثقة!!

منزلته عند العلماء:

لأجل هذه الدقة التي توفرت لدى ابن المبارك والتزم بها، كان اهتمام الإمام مالك به.. فقد روي عن يحيى بن يحيى الليثي قال: كنا عند مالك، فاستؤذن لعبد الله بن المبارك بالدخول، فأذن له، فرأينا مالكًا تزحزح له في مجلسه ثم أقعده بلصقه، وما رأيت مالكًا تزحزح لأحد في مجلسه غيره، فكان القارئ يقرأ على مالك، فربما مر بشيء فيسأله مالك: ما مذهبكم في هذا؟ أو ما عندكم في هذا؟ فرأيت ابن المبارك يجاوبه، ثم قام فخرج، فأعجب مالك بأدبه، ثم قال لنا مالك: هذا ابن المبارك فقيه خراسان.

ولنا أن نستعيد ما قاله والي المدينة حين جاءه الإمام الشافعي يحمل كتابًا من والي مكة ليتمكن الشافعي من لقاء الإمام مالك؛ حيث قال والي المدينة للشافعي: " يا فتى! لو كلفتني المشي من جوف المدينة راجلاً حافيًا كان أهون عليَّ من المشي إلى باب مالك.. وليتنا إذا ركبنا ووقفنا على بابه يفتح لنا الباب ". لنعلم من هذا منزلة عبد الله بن المبارك عند الإمام مالك!!

أما منزلته عند ابن عيينة فهي شيء فوق ذلك كله؛ حيث قال: " نظرت في أمر الصحابة فما رأيت لهم فضلاً على ابن المبارك إلا بصحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم وغزوهم معه ".

طيب خلق وسعة علم:

كان ابن المبارك رجلاً يحفظ حق أساتذته ويجل شيوخه، فلم يكن يُحدث في وجود أحد منهم، ولكن محبيه طلبوا ذلك في وجود حماد بن زيد وهو من هو في ذلك العصر، فما عسى ابن المبارك أن يفعل؟!

يقول إسماعيل الخطبي: بلغني عن ابن المبارك أنه حضر عند حماد بن زيد، فقال أصحاب الحديث لحماد: سل أبا عبد الرحمن أن يحدثنا. فقال: يا أبا عبد

الرحمن، تحدثهم؛ فإنهم قد سألوني؟ قال: سبحان الله يا أبا إسماعيل، أحدث وأنت حاضر؟! فقال: أقسمت عليك لتفعلن. فقال: خذوا. حدثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد، فما حدث بحرف إلا عن حماد.

لقد وجد ابن المبارك نفسه أمام قسم حماد، ولكن ما فعله يشهد له بسعة العلم ودماثة الخلق!!

وقد سُمع ابن المبارك يقول إعظامًا لقدر حماد بن زيد:

::
أيهـــا الطالـــب علمًـــا : إئـــت حمـــاد بـــن زيـــد
فاســـتفد حلمـــا وعلمـــا :: ثـــم قيـــده بقيـــد
:

وإن كان شعره هذا يشهد بالعلم لحماد بن زيد، فقد أحسن عندما قال عن أبي حنيفة:

::
رأيـت أبـا حنيفـة كـل يـوم : يزيـد نبالـة ويزيـد خيـرًا
وينطـق بالصـواب ويصـطفيه :: إذا مـا قـال أهـل الجـور جـورًا
:

لقد كان ابن المبارك خير من يعترف لأساتذته بالفضل وحسبه أن قال: " لولا أن الله عز وجل أغاثني بأبي حنيفة وسفيان كنت كسائر الناس ".

شجاعته:

وكان من الشجاعة بالمكان الجهير، وله في ساحة الجهاد نوادر ذائعة، فقد كان في سرية ببلاد الروم خرجت للاستطلاع لا للقتال، ففاجأتها قوة ضخمة من الأعداء، واصطف الفريقان ونهض فارس رومي يدعو للمبارزة وفقًا لما كان معهودًا إذ ذاك، فتقدم إليه بطل مسلم، فلم يستطع نزاله، وخر شهيدًا، وتقدم ثانٍ فكانت النتيجة هي النتيجة، وتخوف المسلمون وذعروا من رهبة هذا الصائل الفاتك. وغلا الدم في رأس ابن المبارك، فخف إليه، واشتد الصراع بين الفارسين، وكل منهما يبدي من أساليب الصيال ما في طوقه كرًّا وفرًّا، في واقعة شديدة، لم ير الناس أرهب منها! ثم حصلت المفاجأة حين طعن ابن المبارك غريمه طعنة أصابت منه مقتلاً فسقط على الأرض، وكبر المسلمون، ورجع ابن

المبارك وقد غطى وجهه حتى لا يشتهر بين الناس.

لقد كان الإمام العالم يعرف فضل الجهاد، وهو الذي أرسل إلى أخيه الفضيل ابن عياض برسالة يقول فيها:

ياعابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في ... أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

وفي الأبيات تضمين لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ::**لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم**ـــ.

سخاؤه:

أما عن سخائه فحدث ولا حرج، فمواقف سخائه كثيرة مبثوثة في كتب التراث نذكر منها ما رواه محمد بن علي بن الحسن بن شقيق عن أبيه قال: كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج، اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو، فيقولون: نصحبك. فيقول: هاتوا نفقاتكم، فيأخذ نفقاتهم، فيجعلها في صندوق، ويقفل عليها، ثم يكتري لهم، ويخرجهم من مرو إلى بغداد، فلا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام، وأطيب الحلوى، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأكمل مروءة، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول لكل واحد: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من المدينة من طُرفها؟ فيقول: كذا وكذا، ثم يخرجهم إلى

مكة، فإذا قضوا حجهم قال لكل واحد منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكة؟ فيقول: كذا وكذا. فيشتري لهم، ثم يخرجهم من مكة، فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو، فإذا كان بعد ثلاثة أيام، عمل لهم وليمة وكساهم، فإذا أكلوا وسُرُّوا، دعا بالصندوق ففتحه ودفع إلى كل رجل منهم صرته، عليها اسمه.

ومنها أنه جاء رجل إلى ابن المبارك فسأله أن يقضي دينًا عليه، فكتب له إلى وكيل له، فلما ورد عليه الكتاب، قال له الوكيل: كم الدين الذي سألته قضاءه؟ قال: سبعمائة درهم. وإذا عبد الله قد كتب له أن يعطيه سبعة آلاف درهم، فراجعه الوكيل، وقال: إن الغلات قد فنيت، فكتب إليه عبد الله: إن كانت الغلات قد فنيت، فإن العمر أيضًا قد فنى، فأجز له ما سبق به قلمي.

ولكثرة إنفاقه عوتب ابن المبارك فيما يفرق من المال في البلدان دون بلده، قال: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق طلبوا الحديث، فأحسنوا طلبه لحاجة الناس إليهم احتاجوا، فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم.

وفاته:

قال الفسوي في " تاريخه ": سمعت الحسن ابن الربيع يقول: شهدت موت ابن المبارك، مات لعشر مضت من رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة، ومات سحرًا، ودفناه بهيت، ولبعض الفضلاء:

مررت بقبر ابن المبارك زائرًا ... فأوسعني وعظًا وليس بناطق
وقد كنتُ بالعلم الذي في جوانحي ... غنيًا وبالشيب الذي في مفارقي
ولكن أرى الذكرى تنبه عاقلاً ... إذا هي جاءت من رجال الحقائق

وعن عبد الرحمن بن عبيد الله يقول: كنا عند الفضيل بن عياض فجاء فتى في شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومئة، فنعى إليه ابن المبارك، فقال فضيل: " إنا لله وإنا إليه راجعون، أما إنه ما خلف بعده مثله.

مواقف من حياة عبد الله بن المبارك :

أكلت فرسي حرامًا:

- كان عبد الله بن المبارك في غزوة فنزل عند نهر ونصب رمحه وربط فرسه وتوضأ وشرع يصلي فلما سلم وجد فرسه أنها انفلتت وأكلت من الزرع.

فقال: أكلت فرسي حرامًا فلا ينبغي لي أن أغزو عليها فتركها لصاحب الزرع واشترى غيرها وغزا عليها.

ليس كل خلاف يُستراح له:

- وعندما ناظره أهل الكوفة في النبيذ وجعلوا يستدلون على حله بأقوال وشرب بعض أهل الكوفة له، قال: " دعوا عند الاختلاف الاحتجاج بالرجال "، أوكما قال؛ ولله در الأول حين قال:

ليس كل خلاف يُستراح له إلا خلافاً له حظ من النظر.

سلم منك الروم وسلم منك فارس، ولم يسلم منك أخوك!! :

- وجلس رجل في مجلس عبد الله بن المبارك فاغتاب أحد المسلمين، فقال له عبد الله بن المبارك: يا أخي هل غزوت الروم؟! قال: لا. قال: هل غزوت فارس؟! قال: لا. فقال عبدالله بن المبارك: سلم منك الروم وسلم منك فارس، ولم يسلم منك أخوك!!

والكذب للرافضة:

- وقال رحمه الله تعالى: " الدين لأهل الحديث، والكلام والحيل لأهل الرأي، والكذب للرافضة " يعني للشيعة.

احمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك:

- وفي السير: أن ابن المبارك.. كان كثيراً ما يسافر إلى الرقة.. وينزل في

خان فيها..

فكان شاب يأتي إليه.. ويقوم بحوائجه.. ويسمع منه الحديث..

فقدم عبد الله الرقة مرة.. فلم ير ذلك الشاب..

فسأل عنه.. فقالوا: إنه محبوس.. لدين ركبه..

فقال عبد الله: وكم مبلغ دينه؟ فقالوا: عشرة آلاف درهم..

فلم يزل عبد الله يستقصي.. حتى دُلَّ على صاحب المال.. فدعا به ليلاً وأعطاه عشرة آلاف درهم.. وحلفه أن لا يخبر أحداً.. ما دام عبد الله حياً.. وقال له: إذا أصبحت.. فاخرج الرجل منفلما خرج الفتى من الحبس.. قيل له: عبد الله بن المبارك كان هاهنا.. وكان يسأل عنك.. فخرج الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرقة.. فلما قابله.. قال له عبد الله: يا فتى.. أين كنت؟ لم أرك في الخان! قال: كنت محبوساً بدين..

قال: فكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل فقضى ديني.. ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس..

فقال له عبد الله: احمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك.. ثم فارقه ومضى..

إلا رأيت أنه خيرٌ منك:

- وروى الخطابي أن الإمام الفذ عبد الله بن المبارك قدم خراسان فقصد رجلاً مشهوراً بالزهد والورع فلما دخل عليه لم يلتفت إليه الرجل ولم يأبه به ولم يهتم به، فخرج من عنده عبد الله بن المبارك فقال له بعض من عنده: أتدري من هذا؟ قال " لا، قالوا: هذا أمير المؤمنين في الحديث... هذا عبد الله بن المبارك فبهت الرجل وخرج إلي بن المبارك مسرعاً يعتذر إليه ويتنصل مما حدث وقال: يا أبا عبد الرحمن: أعذرني وعظني، قال ا بن المبارك: نعم إذا خرجت من منزلك فلا يقعن بصرك علي أحد إلا رأيت أنه خيرٌ منك "

الذي فعلت له لا يخفى عليه:

- ويقول الحسن بن الربيع عن جهاد الإمام الجليل عبد الله بن المبارك "

خرج فارس من المسلمين ملثم فقتل فارسا من العدو كان فعل بالمسلمين فكبر له المسلمون، فدخل في غمار الناس ولم يعرفه أحد، فتتبعته حتى سألته بالله أن يرفع لثامه، فعرفته فقلت: أخفيت نفسك مع هذا الفتح العظيم الذي يسره الله على يدك؟ فقال الذي فعلت له لا يخفى عليه ".

كلام . . . بالقرآن!:

- قال عبد الله بن المبارك خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا في بعض الطريق إذ أنا بسواد فتميزت ذاك فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقالت:{ٹٹڤڤڤڤ} [يس: ٥٨] قال: فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان قالت:{□□□□□□□□} [الرعد: ٣٣] فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها: أين تريدين قالت:{ٱٻٻٻٻپپپپ} [الإسراء: ١] فعلمت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس، فقلت لها: أنت منذ كم في هذا الموضع قالت:{ۇۆۆ} [مريم: ١٠] فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين قال:{ئەئو} [الشعراء: ٧٩] فقلت: فبأي شيء تتوضئين قالت:{ېىئائە} [النساء: ٤٣] فقلت لها: أن معي طعاماً فهل لك في الأكل قال:{ڃڃڃڃڈ} [البقرة: ١٨٧] فقلت: ليس هذا شهر رمضان قالت:{ڳڳڳڳگگ} [البقرة: ١٥٨] فقلت: قد أبيح لنا الإفطار في السفر قالت:{ککککگگگگ} [البقرة: ١٨٤] فقلت: لم لا تكلميني كما أكلمك قالت:{ڤڤڤڤڦڦڄ} [ق: ١٨] فقلت: قمن أي الناس أنت قالت:{ئوئۇ ئۇئۆئۆئۈئۈئېئېئىئىی□} [الإسراء: ٣٦] فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حل قالت:{ےےۓۓڭڭۇۇ} [يوسف: ٩٢] فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة قالت:{ٹٹٹٹٹٹ} [البقرة: ١٩٧] قال فأنخت ناقتي قالت:{ڃڃڃڃڊ} [النور: ٣٠] فغضضت بصري عنها وقلت لها: اركبي فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت:{ى□□□□} [الشورى: ٣٠] فقلت: لها أبصري حتى أعلقها قالت:{ەە} [الأنبياء: ٧٩] فعلقت الناقة وقلت لها اركبي فلما ركبت قالت:{ڃڃڃڃڃڃڃڃڃڃڊڊ} [الزخرف: ١٣ - ١٤] قال فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسرع وأصيح فقالت:{□□□□□□□} [لقمان: ١٩]

فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم بالشعر فقالت: {ﭫﭬﭭﭮﭯ} [المزمل: ٢٠] فقلت لها: لقد أوتيت خيراً كثيراً قالت: {ﯝﯞﯟﯠﯡ} [البقرة: ٢٦٩] فلما مشيت بها قليلاً قلت ألك زوج قالت:{ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ} [المائدة: ١٠١] فسكت ولم أكملها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها: هذه القافلة فمن لك فيها فقالت: {ﭑﭒﭓﭔﭕ} [الكهف: ٤٦] فعلمت أن لها أولاداً فقلت: وما شأنهم في الحج قالت: {ﭽﭾﭿﮀﮁ} [النحل: ١٦] فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب والعمارات فقلت: هذه القباب فمن لك فيها قالت: {ﮋﮌﮍ} [النساء: ١٢٥]، {ﭽﭾﭿﮀﮁ} [النساء: ١٦٤]، {ﭑﭒﭓﭔﭕ} [مريم: ١٢] فناديت: يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا فلما استقر بهم الجلوس قالت:{ﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥ ﯦﯧ} [الكهف: ١٩] فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدي وقالت:{ﯫﯬﯭﯮﯯﯰ ﯱﯲﯳ} [الحاقة: ٢٤] فقلت: الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها فقالوا: هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل، فيسخط عليها الرحمن، فسبحان القادر على ما يشاء فقلت:{ﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮ} [الحديد: ٢١].

أنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بينهم:

- وحدث الحسن بن عيسى بن ماسرحس، قال سمعت عبد الله بن المبارك، وقد قيل له: يا أبا عبد الرحمن إنك تكثر القعود في البيت وحدك، فقال: ليس أنا وحدي، أنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بينهم - يعني النظر في الكتب.

وقوم طلبوا الدنيا:

- وحدث أبو حنيفة بإسناد له والمازني قالا: ولي إسماعيل بن علية الصدقاتِ بالبصرة، فكتب إلى عبد الله بن المبارك يصف له ما وقع فيه، ويقول له: أحب أن تبعث إلى إخوننا من القُراءِ لنشغلهم، فكتب إليه عبد الله بن المبارك: القراء ضربانِ: قوم طلبوا هذا الأمر لله، فأولئك لا حاجةَ لهم في لقائك، وقوم طلبوا الدنيا، فأولئك أضر على الناس من الشرط، وكتب إليه:

يا جاعلَ الدين له بازيا :: يصيدَ أموالَ المساكينِ

احتلـــتَ للـــدنيا ولـــذاتها : بحيلـــةٍ تـــذهبُ بالـــدينِ
وصـرتَ مجنونـاً بهـا بعـدما :: كُنـــتَ دواءً للمجـــانينَ
أيـــنَ رواياتـــك فيمـــا مضـــى : عـنِ ابـنِ عـونٍ وابـن سـيرينِ
أيـــنَ أحاديثـــك والقـــولُ فـــي :: لـــزومِ أبـــوابِ الســـلاطينِ
تقـــولُ أُكرِهْـــتُ ومـــاذا كَـــذا : زَلّ حِمـــارُ العلْـــم فـــي الطِّـــينِ
::
:
::
:
::
:

فلم أدر من أيهم أعجب:

- قال عبد الله بن المبارك: لما أفضت الخلافة إلى هارون، وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي، فأرادها على نفسها، فقالت: لا أصلح لك؛ إن أباك قد أطاف بي، فأغري بها. قال: فبعث إلى أبي يوسف فقال: جارية من جواري المهدي أردتها فتحصنت مني وذكرت أن أبي قد وقع بها، فعندك في هذا شيء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، لا تصدقها، ليست بمأمونة على نفسها.

قال عبد الله بن المبارك: فلم أدر من أيهم أعجب، من هذا الذي قد وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرج من وطء جارية لأبيه رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين، أم من هذا فقيه الأرض وقاضيها، قال: تهتك حرمة أبيك واقض شهوتك وصيره في رقبتي.

يا طبيب أعندك دواء المذنوب؟! :

- وعن عبد الله بن المبارك قال: مررت في سياحتي بالشام بطبيب يصف لكل ما يحب فقلت له: يا طبيب أعندك دواء المذنوب فقال: نعم فلما تفترق الناس قال لي يا هذا عليك بورق الفقر وعروق الصبر واهليلج الصاف وبليلج الرضا وغارقون في الكتمان وسقمونا الأحزان فأمر سهم بماء الأجفان ودعهم في طاجن القلق وأوقد تحتهم نار الفرق وصفهم بمنخل الأرق واشربهم على الحرق فإنه شفاؤك وأنشد:

يـــا طبيبـــا بـــذكره يتـــداوى :: وصـــفوه لكـــل داء غريـــب

ليس حزني عليك شيء عجيب : إنما الصبر عنك شيء عجيب

::

:

هذا حرام فهل عملت غيره؟!:

- وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: حججت في بعض السنين فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال: إذا رجعت إلى بغداد فأقرئ بهرام المجوسي مني السلام وقل له: الله تعالى راض عنك فلما رجعت إليه قلت: هل لك من خير عند الله قال: زوجت ابني ببنتي وصنعت وليمة فقلت: هذا حرام فهل عملت غيره قال: تزوجت أنا ببنتي وصنعت وليمة فقلت له: هذا حرام، فهل عملت غيره؟ قال: جاءتني مسلمة وأصبحت مصباحا من سراجي فلما صارت في الباب أطفأته ثم رجعت أشعلته أيضا ثم أطفأته في الباب وهكذا ثلاث مرات في الرابعة أشعلته ومضت فتبعتها إلى منزلها وقلت: لعلها جاسوسة، فسمعت أولادها يقولون: قد أضرنا الجوع، فقالت: استحييت من الله أن أطلب من غيره، فرجعت وأخذت طعاما وحملته إليهم، فقلت له: أبشر فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام ويقول: إن الله راض عنك فأسلم وحسن إسلامه.

أي شيء يقول العاطس إذا عطس؟ :

- وعطس رجل عند عبد الله بن المبارك فلم يحمد الله عز وجل، فقال له ابن المبارك: أي شيء يقول العاطس إذا عطس؟ قال الحمد لله. فقال ابن المبارك: يرحمك الله. فعجب الحاضرون من حسن أدبه.

هذا والله الملك لا ملك هارون:

- وقدم هارون الرشيد الرقة، فانحفل الناس خلف عبد الله بن المبارك، وتقطعت النعال، وارتفعت الغيرة، فأشرفت أم ولد الرشيد من قصر الخشب، فلما رأت الناس قالت: من هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان، يقال له عبد الله ابن المبارك. فقالت: هذا والله الملك لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان.

فرجع من انطاكية إلى الشام ماشياً:

- وذكر غيره أن عبد الله بن المبارك استعار قلماً من الشام، فعرض له سفر فسافر إلى انطاكية، وكان قد نسي القلم معه فتذكره هناك فرجع من انطاكية إلى الشام ماشياً حتى رد القلم إلى صاحبه وعاد.

ألست صاحبي بالأمس؟ :

- وعن عبد الله بن المبارك المجمع على دينه وعلمه وورعه، أنه قال: خرجت إلى الجهاد ومعي فرس فبينما أنا في بعض الطريق إذ صرع الفرس، فمر بي رجل حسن الوجه طيب الرائحة، فقال: أتحب أن تركب فرسك. قلت: نعم. فوضع يده على جبهة الفرس حتى انتهى إلى مؤخره، وقال: أقسمت عليك أيتها العلة بعزة عزة الله وبعظمة عظمة الله وبجلال جلال الله وبقدرة قدرة الله وبسلطان سلطان الله وبلا إله إلا الله وبما جرى به القلم من عند الله وبلا حول ولا قوة إلا بالله إلا انصرفت. قال: فانتفض الفرس وقام، فأخذ الرجل بركابي وقال: اركب فركبت ولحقت بأصحابي، فلما كان من غداة غد وظهرنا على العدو فإذا هو بين أيدينا، فقلت: ألست صاحبي بالأمس؟ قال: بلى. فقلت: سألتك بالله من أنت؟ فوثب قائماً فاهتزت الأرض تحته خضراء، فإذا هو الخضر عليه السلام. قال ابن المبارك رضي الله تعالى عنه: فما قلت هذه الكلمات على عليل إلا شفي بإذن الله تعالى.

أترضى حالك هذه للموت؟ :

- وقال عبد الله بن المبارك، قال عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية لرجل من إخوانه كان يجالسه: أترضى حالك هذه للموت؟ قال: لا، قال: فهل أنت مجمع على الانتقال إلى حال ترضاها للموت؟ قال: ما سخت نفسي بذلك بعد، قال: ويحك، فهل بعد الموت دار فيها معتمل؟ قال: لا، قال: فهل تأمن أن يأتيك الموت على حالك هذه؟ قال: لا، فقال: ما رأيت مثل هذه الحال رضي بها عاقل، فاتق الله يا أخي واعمل قبل أن تندم.

من شعر الحكمة لعبد الله بن المبارك :

- كتب عبد الله بن المبارك وكان يرابط في ثغر من ثغور المسلمين إلى

الفضيل بن عياض يقول: -

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادقٌ لا يكذب
لا يستوي وغبار أهل الله ... في أنف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

- وقال:

أيضمن لي فتى ترك المعاصي ... وأرهنه الكفالة بالخلاص
أطاع الله قوم فاستراحوا ... ولم يتجرّعوا غضض المعاصي

- وقال:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل بدل الدين غير الملوك ... وأحبار سوءٍ ورهبانها

- وقال:

لله درّ القنوع من خلق! ... كم من وضيع به ارتفعا؟!
يضيق الفتى بحاجته ... ومن تأسى بدونه اتسعا

- وقال:

العلم كنز وذخره لا تعادله ... نعم القرين إذا ما عاقل صحبا

يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه : لا تعدلن به داراً ولا ذهبا
اشدد يديك به تحمد مغبته به :: تنال الغنى والدين والحسبا
قد يجمع المرء مالاً ثم يسلبه : عما قليل فيلقى الذل والحربا
::
:
::
:

- وقال:

::
:
يا عُدولَ البلادِ أنتم ذِئابٌ :: سَترتكم عن العيون الثّيابُ
غيرَ أنَّ الذئابَ تصطادُ وحشاً : ومباآتُها القِفارُ اَليَبابُ
ويَصيدُ العدولُ مالَ اليتامى :: باقتناصٍ كما يصيدُ العُقابُ
عَمّروا موضِعَ التصنعِ منهم : ومحلُّ الإخلاصِ منهم خرابُ
::
:

- وقال:

::
قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره : وقد فتحت لك الحانوت بالدين
بين الأساطين حانوت بلا غلق :: تبتاع بالدين أموال المساكين
صيرت دينك شاهيناً تصيد به : وليس يفلح أصحاب الشواهين
::
:

- وقال رجل لعبد الله بن المبارك: أَوْصِني فقال: احفظْ لِسانَك، ثم أَنشده قوله:

::
احْفَظْ لسانَك إنَّ اللسانَ : حَريصٌ على المَرْء في قَتْله دَليلُ
وإنَّ اللسانَ بريدُ الفُؤادِ :: الرجالِ عَلى عَقْلِهِ
:

- ومن قوله:

هَمومُكَ بالعَيْشِ مَقرونةٌ :: فما تَقطعُ العَيْشَ إلا بِهَمّ
حَلاَوَةُ دُنْيَاكَ مَسمُومَةٌ : فما تَأْكُلُ الشَّهْدَ إلاَّ بِسَمّ

- وقال:

إلى الله أَشْكو لا إلى الناسِ أَنَّني ... أَرَى صَالحَ الأَخلاقِ لا أَسْتَطيعُها
أَرَى خَلَّةً في إخْوَةٍ وعَشيرةٍ ... وذِي رَحِمٍ، ما كُنْتُ مّمن يُضيعُها
فلَوْ طَاوَعَتْني بالمكَارِمِ قُدْرَةٌ ... لَجَادَ عَلَيْها بالنَّوالِ رَبِيعُها

- وقال:

دُنْيَا تَدَاوَلها العِبَادُ ذَميمةٌ ... شِيبَتْ بِأَكْرَهَ مِنْ نَقيعِ الحَنْظَلِ
وبَنَاتُ دَهْرٍ لا تَزَالُ مُلِمَّةً ... فيها فَجَائِعُ مِثْلِ وَقْعِ الجَنْدَلِ

- وقال:

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأمن في الدنيا هجوع

- وودع عبد الله بن المبارك رجلا، فقال:

ونحن ننادي أنّ فرقة بيننا ... فراق حياةٍ لا فراق ممات

- وقال:

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا ... بعروته الوثقى لمن دانا
منه
لولا الخلافة لم تأمن لنا سبل ... وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

- وقال:

يد المعروف غنم حيث كانت ... تحملها شكور أو كفور
ففي شكر الشكور لها جزاء ... وعند الله ما كفر الكفور

ومن أقواله الحكيمة :

- اللحن في الكلام أقبح من آثار الجدريّ في الوجه.

- التعزّز على الأغنياء تواضع.

- لا ينبل الرجل بنوع من العلم ما لم يزين علمه بالأدب.

- ومر عبد الله بن المبارك برجل واقف بين مقبرة ومزبلة فقال: يا رجل، إنك بين كنَزين: كنزِ الأموال، وكنز الرجال.

- وصلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك، وبادر القيام، فجذب ثوبه وقال: أما لك إلى الله حاجة.

- ووذكرت الغيبة عند عبد الله بن المبارك فقال: لو كنت مغتاباً لاغتبت أمي، لأنها أحق بحسناتي إليها.

- وقال عبد الله بن المبارك، قال سفيان: كان يقال: إذا عرفت نفسك لم يضرك ما قيل لك.

- وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً.

- فساد الدين إلى ثلاث طوائف، أخطرها علماء السوء، الأئمة المضلون، الرؤوس الجهال، الذين يفتون بغير علم فيَضِلوا ويُضِلوا.

- من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة، ويعارضونها بها، ويقدمونها على حكم الله ورسوله.

وفي رواية:

رأيتُ الذنوب تميت القلوبَ ... ويورث الذلَّ إدمانُها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ ... وأحبارُ سوء ورهبانُها
وباعوا النفوس فلم يربحوا ... ولم يغل في البيع أثمانُها
لقد رتع القوم في جيفة ... يبين لذي العقل إنتانُها

اللهم هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

- وعن عبد الله بن المبارك قال: إن رجلا حكيمًا جمع الأحاديث فاختار منها أربعين ألفا ثم اختار منها أربعة آلاف ثم اختار منها أربعمائة ثم اختار منها أربعين، ثم اختار منها أربع كلمات إحداهن لا تثقن بامرأة على كل حال، والثانية لا تغتر بالمال على كل حال، والثالثة لا تحمل معدتك ما لا تطيقه، والرابعة لا تجمع من العلم ما لا ينفعك.

- وعن عبد الله بن المبارك قال: حدثنا وهيب قال: ما اجتمع قوم في مجلس أو ملأ إلا كان أولاهم بالله الذي يفتتح بذكر الله حتى يفيضوا في ذكره. وما اجتمع قوم في مجلس أو ملأ إلا كان أبعدهم من الله الذي يفتتح بالشر حتى يخوضوا فيه، وفي الحديث: " طوبى لمن كان مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر وويل لمن كان مفتاحًا للشر مغلاقًا للخي ".

- وقيل لابن المبارك: إذا صليت معنا لمْ تجلس معنا؟! قال: أذهب أجلس مع الصحابة والتابعين؛ قلنا له: ومن أين الصحابة والتابعون؟! قال: أذهب أنظر في علمي فأدرك آثارهم وأعمالهم؛ ما أصنع معكم؟! أنتم تغتابون الناس! فإذا كانت سنة مئتين فالبعد من كثير من الناس أقرب إلى الله، وفر من الناس كفرارك من أسد وتمسك بدينك يسلم لك.

- وقام رجل إلى ابن المبارك فقال: يا أبا عبد الرحمن في أي شيء أجعل فضل يومي؟ في تعلم القرآن أو في طلب العلم؟ فقال: هل تقرأ من القرآن ما تقيم

به صلاتك؟ قال: نعم؛ قال: فاجعله في طلب العلم الذي يعرف به القرآن.

- رب عمل صغير تكثره النية، ورب عمل كبير تصغره النية.

- رأس التواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا حتى تُعلمه أن ليس لك بدنياك عليه فضل وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل.

- عن ابن المبارك قال: كان رجل ذا مال لم يسمع بعالم إلا أتاه حتى يقتبس منه فسمع أن في موضع كذا وكذا عالماً فركب السفينة وفيها امرأة فقالت: ما أمرك يا هذا؟ قال: إني مشغوف بحب العلم فسمعت أن في موضع كذا عالماً آتيه، قالت: يا هذا كلما زيد في علمك يزيد في عملك أو تزيد في علمك والعمل موقوف؟ فانتبه الرجل ورجع وأخذ في العمل.

- عن عبد الله بن المبارك قال: جئت على سفيان عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه وعيناه تهملان فبكيت فالتفت إلي فقال: ما شأنك؟! فقلت: من أسوأ هذا الجمع حالاً؟ قال: الذي يظن أن الله لا يغفر لهم.

عن أبي صالح الأنطاكي قال: سمعت ابن المبارك يقول: من بخل بالعلم ابتلي بثلاث، إما يموت فيذهب علمه؛ وإما يَنسى، وإما يصحب السلطان فيذهب علمه[1].

* * *

(1) مصادر الترجمة: طبقات خليفة: 323، تاريخ خليفة: 146، التاريخ الكبير: 5 / 212، التاريخ الصغير: 2 / 225، المعارف: 511، الجرح والتعديل: 5 / 179، الولاة والقضاة: 368، حلية الأولياء: 8 / 162، الانتقاء: 132، تاريخ بغداد: 10 / 152، طبقات الشيرازي: الورقة: 26، ترتيب المدارك: / 300، صفوة الصفوة: 4 / 134 - 147، وفيات الأعيان: 3 / 32، تهذيب الكمال: 730، تهذيب التهذيب: 2 / 177 / 2 تذكرة الحفاظ: 1 / 174، العبر: 1 / 280، الديباج المذهب: 130، غاية النهاية: 1 / 446، تهذيب التهذيب: 5 / 382، النجوم الزاهرة: 2 / 27، خلاصة تهذيب الكمال: 211، الطبقات الكبرى للشعراني: 50، شذرات الذهب: 1 / 295.